

صك الكرامة!..

هذه القصص ليست كلها حقائق وليست كلها أساطير ولكنها مزيج من الاثنين... فيها جذور من وقائع تاريخية وفيها شيء من خيال الرواة... لكنها على كل حال تعرض لونا من أدبنا الشعبي،

وكانت ليلة... قالت له أم صالح إن الصبر قد نفذ، ولم يعد من المستطاع السكوت على هذه الحالة المؤلمة، ولو أن الأمر مقصور على عليك لهان، ولكن الجوع الكافر يكاد يقضى على الصغار ولا سبيل إلى تجاهل الواقع، ولم يبق إلا أن تذهب إلى صديقك عبد الرحمن فتقترض منه ما يتبلغ به الأطفال الجوعاء..

واخترقت لفظة « اقترض » أذن صاحبنا اختراق الرصاصة، وفتح كأنه لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، هو يقترض من عبد الرحمن؟! يا القسوة أم صالح، لقد حزت في نفسه تلك الكلمة كما لم تحز فيها كلمة أخرى، إنه لم يشعر

بالأسى واللوعة لكل تلك المصائب التي حلت به ترى بقدر ما شعر بمرارة هذه اللفظة البغيضة التي انطلقت من فم أم صالح في بساطة، هذا كثير! ولكن الأيام أعنى من أن تقاوم، لذلك أرغم أبو صالح على الخروج حيث رأيته يسير الهويناء طرقا إلى الأرض يجر عصاه جراً قاصداً بيت صديقه عبد الرحمن... وتلقاه صديقه مرحبا هاشا وأخذ يحادثه.

— مرحبا بك يا أباصالح.. لا أراك جئت في مثل هذا الوقت إلا لأمر؟

ومكتنف دنياه، التي كانت عريضة؟ لقد تنازل عن كل شيء، عن بقايا الجاه، وبقايا المال، وبقايا السلع. ولكنه لن يتنازل عن داره العزيرة مهما ساءت الحال، أيتنازل امرؤ عن ماضيه؟...

وأبو صالح يرجو أن لاتسأله عن حاله مع أصدقاء وأقارب الأمس فان هؤلاء ذهبوا مع الأمس الذاهب، كان آخر مرة رآهم فيها حين تلقوا منه خبر مأساته ثم انصرفوا عنه لابلون على شيء، ولم يفاجأ بعزوفهم عنه،



فقد كان حكيما يدرك مدى صداقتهم تلك من قبل، ولكنه صادقهم تمشياً مع طبائع الأشياء...

وبقى أبو صالح يقاوم قسوة الحياة... لكن الحال زادت سوء، واسودت الدنيا في عينيه حين تناهى إلى مسمعه نحيب امرأته وبكاء أولاده الصغار يشكون الجوع، هذا الطاريء الغريب الذي لم يكونوا يعرفونه إلا سماعاً، ويتذمرون لهذا العرى أو ما يشبهه وهم الذين لم يألفوه، إلا حين ينظرون إلى أبناء المساكين في الطرقات..

يا لتصاريف القدر... ويا لتقلب الأيام... أبو صالح هذا الذي تراه يسير الهويناء، مطرِقا برأسه إلى الأرض يجر عصاه جراً، كان من أعيان البلد وكبرائها، وكانت مرافق تجارته تمتد على طول الخليج من البصرة إلى كراچی وموانئ الهند الأخرى وكان صيته البعيد يدوى في أنحاء البلاد، ودار ضيافته كدور الأمراء، ولقد جمع عريض انثراء إلى رفيع الجاه فكان له محل لا يرتقى بجانب الحكام والولاة، كم خلص مظلوما من ظالم وكـم أقال عشرة كريم وكـم أعز عزيز قوم ذل، وكـم بسط كـيفه بالمكرمات... لكن الدنيا التي

لا تبقى على مسرات ولا على أحزان لم تبقى على دنيا أبي صالح فقلب له الدهر ظهر المجن وأزورت عنه أم دفر، وجاءت كآرثته على شكل خسائر يتلو بعضها بعضها حتى أفلس فجأة، وغدا بين يوم وليلة لا يملك من الحطام الفاني سوى دار سكنائه، داره التي يمثل خياله على مسرحها أيام العز... ودافع أبو صالح عن بيعها بكل ما أوتي من قوة وأقسم جـهـد أمانه أن لن يخرج منها أبداً... عجبا! وكيف يتخلى عن مغنى صباه، ومرتع شبابه

وأبو صالح لا يعرف اللف حول الموضوع فدلف إليه مباشرة ، ودون مقدمة ، وشرح لصديقه حاله وسأله حاجته في غصة وألم مكبوت ، فطيب عبد الرحمن خاطره وقال له :

— ولكن المبلغ يا صديقي كبير وأنت الآن بلغت عمراً أرجو أن يطول فهل لك أن تأتمني على رهان ..

رهان ! .. هذا ما لم يفكر فيه ، بيد أنه على كل حال خير رد ينتظر ، فلقد كان يخشى أن يجابه بالرفض الصراح وهو الخزي بعينه ، أما أن يطلب منه عبد الرحمن رهانا فـ هذا حق ... لكن هل بقي لديه ما يرتهن ؟ إن السكائنة لم تبق له شروى نقير .. وأطرق صاحبنا يفكر ... ورفع رأسه بعد قليل في انتباه كمن وجد حلا

أيرضى عبد الرحمن بآتري ؟ .. وهل لما فكر فيه من رهان قيمة الصكوك والسندات ؟ وإذا رفض ؟ يا ويلته !! ويندفع صاحبنا يتكلم في خفوت .

— يا عبد الرحمن ، أنت تعلم أنني نكبت ... وأني غدوت لا أملك شيئا ، ولو كان عندي ما يرتهن لبعته واكتفيت ، ولكن ...

وتوقف .. بالذلل .. بيد أن الموقف لم يعد يتسع للتردد .. هيا .. تنف شعرة من لحيتك التي اختلطت سواد شعرها ببياضه في اتساق جليل ثم لف الشعرة في ورقة نظيفة وقدمها في وقار إلى عبد الرحمن وهو يتمتم :

— هذا رهاني أيها الصديق .

أخذ عبد الرحمن دهشة واستغرابا ، ماذا ؟ شعرة ! وكيف ؟ أسمع أحد

عن شعرة ترتن ؟ هذا غريب ، لكنه ردد وقد استولى عليه شعور بالأريحية : — آه .. بكل سرور ، تفضل ..

ودورة الأيام والليالي تقضى على مديد الأعمار ...

عندما حضرت أبا صالح الوفاة سأله من حوله أن يوصي فان الدنيا دار بوار ، فقال إنه لا شيء لديه يستحق أن يوصي به .. بيد أنه تذكر لجأة شيئا ... فطلب منهم أن يأتوه بصديقه عبد الرحمن ، فلما أتاه مسرعا وانحنى على فراشه همس إليه :

— إذهب واأتمني بالأمانة وسأرد إليك دينك حالا ...

فلما أتاه صديقه بالأمانة الكريمة قبض عليها أبو صالح بيد مرتجفة ، وألقى عليها نظرة عجي ثم ألقاها في الموقد المشتعل ، ومد يده إلى عبد الرحمن وفيها صك التملك للبيت العتيق ... البيت الذي ناضل دونه حتى الموت يقدمه راضيا مغتبطا أداء لكرامته تمثلها هذه الشعرة التي لم تعد شعرة عادية بل عنوانا لكرامة رجل نبيل ...

وأشار المحتضر بحسرج والدمع يحول في عينييه اللتين راحتا تنظران في غبطة إلى الشعرة وهي تحترق ...

— يا أبا عبد الرحمن ، لك أن تبيع الدار وتأخذ من ثمنها ما اقترضته منك . ولتقبل شكرى الجم و ...

... وأسلم الروح ؟

حانا - لبنان

فهر الدوبري

قال ابن التناوين (المتوفى عام ٥٨٣) من أبيات وجهها إلى

الخليفة الناصر لدين الله يلتمس منه نقل رزقه بديوان الإنشاء إلى أولاده بعد ماعمي :

يا ملكا يروع الحوادث والآيا
ومن له أنعم مكررة
أرضى قد أجذبت وليس لمن
ولى عيال لادر درهم
إذا رأوني ذا ثروة جلسوا
وطالما قطعوا حبالي إعر
يمشون حولي شتى كأنهم
م عن ظلمها فترتدع
لنا مصيف فيها ومرتب
أجذب يوما سواك منتجع
قد أكلوا دهرهم وما شبعوا
حولى ومالوا إلى واجتمعوا
اضًا إذا لم يكن معى قطع
عقارب كلما سعوا لسعوا